المناهل

5

قصة

ومايزال في انتظارها

عبدالكريم غلاب

ـــ هـــو انت ... ؟

اطال النظر فى وجهي بعينين محايدتين ووجه متجمد . بعـــد لأى بدات الابتسامة تطفو على وجهه . غرقت عيناه فى ضحكة عارمة لا ينقصها الا صوت ظل مكتوما . امتدت يداه تحتضناني فى رفق ، امتدت شفتـــاه بقبلـــة ودود :

ـــ هو انت ... ؟ لشد ما غيرك الزمان ...

انحلت ذراعاه عن معانقتي . اكتست عيناه طابع الفضول فتجردتا عن حيادهما ، وهما تبحثان عن الشخص القديم الذي تعرفـــان . فى غمـــرة الاكتشاف بدا سعيدا . لم يعرف كيف يعبر عن سعادته بلقائي :

ـــ زمن طويل هذا الذي فصل بيننا ...

تنقلت عيناه فى كل ملامح وجهي ، استقرتا عند رأسي وهو يضيف :

ـــ ... شـــاب راســـك ...

اجبت ضاحكا وانا اتخطى تجاعيد وجهه لتستقر عيناي على شعـــر راســـــه :

ـــ وانت اتعني انك لم تشب ... ؟

استغرقنا معا فى ضحكة عارمة وهو يغير موقعه فيحاذيني . امتدت يده فى رفق لتستقر على كتفي فى عناق ودي . نفس الحركة التـــي كان يأتيها وهو بعد فتى صغير حينما كنا نخرج من المدرسة الابتدائيـة ، أو نتقابل فى شوارع فاس ورحابها . كانت طريقته المحببة للتعبير عن الفـه واطمئنانه حينما ياخذ فى الحديث الى اصدقائه . سرنا معا نخطو خطواتنا البطيئة فى نفس الشارع الذي طالما ذرعناه متحدثين مناقشين ، لا يكاد احدنا يحمل من مشاكل الدنيا الا مشاكل المدرسة ، ولم تكن أي منها ترقي لتصبـــح مشكلـــة .

كنت مغتبطا بهذا اللقاء . اعادت ذراعه ، وهي تطوق عنقي برفق ، ذكريات حبيبة الى نفسي . لم اكن لانسى اصدقاء الطفولة رغم ان الزمان طوح بكل منا فى متاهة لم يكن احد يحسب آنئذ انها ستكون قدره . تطلعت الى وجهه فى ود وانا اقول :

ـــ رغم الزمان والابعاد اجدني مشتاقا اليك .

قال وكانه يمتح من ذكريات عميقة فى الماضي :

ـــ كانت اياما سعيدة بدون مسؤولية ولا هموم ...

خشيت ان يغمر هذه اللحظات ـ ولم يكن ينظر لها الا ان تكون قصارا ـ حديث عن المسؤوليات والهموم . احببت ان اغير المجرى :

ـــ ما تزال فى أسر فاس ، وفى مدينتها القديمة ؟

التقط الكلمة من فمي وهو يضيف :

ـــ وفى هذا الحي بالذات .

حي القرويين : العدول، الشماعين ، العطارين ، رحبة القيس ، زنقة حجامة ، بوطويل ، سبع لويات ... عالم متكامل كنا نحس بانه عالم متفرد

يجمع فاس كلها . ولعلنا بمداركنا الصغيرة لم نكن نعترف لاى حي آخر بانه من فاس . ولذلك لم استغرب حين اكد محمود بانه ما يزال مرتبطا بالحي نفسه . كان من عائلة محافظة . حدثني مرة عن والده وهو يبدي ملاحظة نقدية على صديق كان يهم أن يغير سكناه فينتقل من الحي الى « الطالعة » ، كان والده ينقد بشدة صديقه هذا الذي يتسم تصرفه بالطيش ويقول :

ـــ من سيعرفه فى الطالعة ؟ لا الحمام ولا الفران ولا المسجد ، ولا من يبدأه بالسلام ...

كنا نعجب من حكمة والده وهو يوجه صديقه . وكنت أعجب فى سري لشجاعة هذا الصديق الذي تخطى مشكلة الغربة فى الحمام والفران والمسجد فيسكن حي « الطالعة » ليؤكد لنفسه وللناس ان مستواه الاقتصادي ارتفع ، وانه لم يعد من سكان حي القرويين .

قلت : وأين تسكن ... ؟

قال على الفور : منذ تركت منزل والدي ، الله يرحمه ، وانا فى « زنقة حجامة » .

رنت فى اذني كلمتا « زنقة حجامة » وكاني اسمعها لاول مرة . عادت بي الذاكرة الى وراء . كان محمود قد ارتبط بهذا الزقاق ـ ولم يكن من سكانه ـ بحادثة غريبة ما ازال اذكرها كما لو كان قد قصها علي بالامس .

قلت ، وانا اتغافل عن هذه الذكرى مستلهما واقع التطور الاجتماعي فى فاس :

ـــ وهل اولادك يقبلون ان يظلوا مرتبطين بزنقة حجامة ؟

نظر الي ، وعيناه تزخران بابتسامته العذبة :

ـــ فاتك الفرس قبل مارس ...

لم افهم فاتجهت عيناى الى وجهه تطوقهما علامة استفهام

ـــ ... فاتني القطار .

اضاف وهو يضحك كأنه يطرد عن نفسه غمامة حزينة كادت تظلل وجهه :

ـــ ليس لي أولاد (وبسرعة حتى لا يتسرب فهم خاطىء الى نفسي) لان ... لان أمهم لم تولد بعد .

احسست باني في حاجة الى ان اغير مجرى الحديث حتى لا احرجه. وما تزال قصته القديمة تلح على ذاكرتي تنبعث تفاصيلها حية كأنها بنت الامس . كنا قد اقتحمنا طريق القطانين ، في زاوية منه توقفنا . انحلت يده عن كتفي . تماما كما كان يفعل حينما يريد ان يودع . بدا كأنه لم يعد يجد ما يقول . في مثل الود الذي استقبلني به كان يودعني وهو يأمل ان ابحث عنه كلما زرت فاس . قبلة من هنا وقبلة من هناك ، واستدار في سرعة ، لتغيبه ـ بعد خطوات ـ طريق راس الشراطين .

• • •

تسمرت قدماي حيث تركني . تعلقت عيناي بدكان وقفت ببابه عشرات المرات الح وارجو وآمل واستعين بكل صبر أيوب . ما تزال على ابوابه آثار الطلاء الاخضر رغم أنها تهشمت . الواجهة الزجاجية ما تزا ل، رغم بلاها واستحالة لونها ، تطفح بالساعات المعلقة . ساعات الجيب من كل الاحجام والاصناف ، بعضها مستدير ، كحق نشوق ، بغطائه الفضي اللامع. كثير منها انكسر غطاؤها ، او لعلها من الساعات الحديثة التي تصنع دون غطاء . خلف الواجهة ساعات منبهة او متربعة كسيدة عجوز تحتفظ بكل تراثها وثرائها . على جدران المعمل ساعات في طول الجدار برقاصها المتدلي ، بعض هذه الرقاقيص يتحرك ببطء وبعضها جامد في مكانه كان زمانه قد توقف ، الحياة بكل قدمها ما تزال تدب في الدكان الذي تحرك فيه الزمان بكل ساعاته ودقائقه وثوانيه . وهو ... هو نفسه ما يزال يقتعد مقعده خلف الفاصل الخشبي يملأ الفتحة الصغيرة التي تركتها واجهة الدكان . تطلعت في وجهه ، ملأه الشيب والتجاعيد ، تغضنت

بشرته كتينة فى اواخر الخريف . نظارة سميكة تقتعد انفه ، قب جلابته ما يزال يعلو طربوشه . جالسا كبوذا لعله الان ينتظر القادمين . كانوا يوم عرفته ينتظرونه ، يطمحون الى رؤياه كما لو كان هو زمانهم .

انه هو ... سيدي عزوز مصلح الساعات المعروف . لم يكن كغيره من الساعاتيين الذين كانت تطفح بهم أحياء فاس . ولكنه كان فريد زمانه فى اصلاح الساعات التي تستعصى على الآخرين ، والساعات الثمينة التي لا يثق أصحابها ان يضعوها فى أي يد غير صناع ، والساعات التي يبدو لاصحابها ـ ولو انهم لا يعرفون شيئا فى علوم الساعات ـ معقدة لانها مستوردة من بلاد « الوندريز » او بلاد « السويس » لم يكن لهذه الساعات جميعها على اختلاف اشكالها وأحجامها غير سيدي عزوز .

ولم يكن سيدي عزوز يبتذل علمه ومعرفته ، فقد كان يلقب نفسه بالطبيب ولا يقبل أن يسمع من أي كان كلمة « المواكني » .. وكان يلقب دكانه بالمصنع ولا يقبل أن يسمع من أي كان كلمة «الحانوت» . لا يقبل اى ساعة ، ولا يتعامل مع اى من اصحاب الساعات ، الا الذين يعرفهم من عائلات فاس المعروفين والموسرين . ويحتفظ معمله بثروة طائلة من الساعات التي تبدو ثمينة . لعل احدا لم يحل لغز هذه الثروة قط : هل كان يتاجر فيها ، او هي متحفه الثمين الذي يعيش منتشيا بدقاتها وتجاربها مع الزمان ، يراود هذه لتستقيم ، ويعتز بتلك التي تحاسب الزمان حسابا عسيرا ، تحصي انفاسه وتسجل ثوانيه ودقائقه وتشير للمؤذن : ان ارفع صوتك : الله اكبر . ويلجأ اليها المغرمون بدقة الوقت يقيسون على دقتها ساعاتهم ، يسالون سيدي عزوز عن الساعة (بالضبط) ان كان فارغا من العمل هادىء الطبع ، او يسترقون النظر اليها ان كان بين أدواته الدقيقة وعلى عينه اليمنى نظارته السوداء يعالج عطبا فى ساعة او يكشف خللا فى اخـــرى .

لم يكن سيدي عزوز محترفا ، ولكنه ـ فيما يبدو ـ كان هاويـا . سعيدا فى معمله وبين صديقاتـه القديمـات ، لا يهمـه ان يسـرع باصلاح ساعة ليعيدها الى صاحبها أكثر مما يهمه ان يتركها أكبر وقـت

ممكن مع زميلاتها لعلها توحي له بمفارقة ، او لعلها تضيف الى المتحف قطعة فريدة كان حاجة اليها .

كان حارس الزمان يحصي انفاسه ، كما لو كان الجبار امسك بتلابيب العفريت يسجنه فى قمقمه ـ فيما تزعم الاسطورة ـ ويتربع على عتبته ليلهو به ، لا يحفل بما يصنع بالآخرين ما دام يستطيع ان يضبط حركته فى هذه الآلات الدقيقة الثمينة ...

لذلك لم يكن على صلة وفاء مع زبنائه الذين تنتظر ساعاتهم عنده شهورا ذوات العدد ، ان لم تبلغ السنوات . ومع ذلك كانت علاقات ودية يلجاون اليه كلما حرنت لاحدهم ساعة ، وهم يعرفون مندما انها ستستقر فى المتحف الى ان يرضى عنها . لم يكن احدهم يغضب او يسحب ساعته اذا طال به الانتظار والتسويف ، ولكن احدا منهم لم يكن ييأس فيسأل عن الساعة كلما مر من شارع القطانين ، وهو يعرف انه سيسمع الجواب التقليدي :

ـــ يومان أو ثلاثة ... هي فى طريقها الى الاصلاح .

كان والد محمود من زبناء سيدي عزوز . لا تكاد ساعة من ساعاته الكثيرة تصاب بعطب او تسرع او تتمهل فى سيرها الا حملها اليه كانه يحمل الى طبيب احدى بناته لا يرجو شفاءها الا على يده . ولم يكن سيدي عزوز يختلف فى معاملته للحاج بوبكر عن معاملته للآخرين ، ولم يكن الحاج بوبكر يضيق صدرا بهذا الاخلال فى المواعيد من الرجل الذي يرغم الآلة على الا تخل بثانية تتقدم بها او تتاخر .

ولعل محمودا كان هو الضحية .

لم يكن ، وهو فتى يافع ، يملك ساعة او يسمح له والده بان يحمل احدى هذه الساعات التي يحفل بها المنزل . ولذلك كان الزمان عنده يقاس بالليل والنهار ، وفى ايام المدرسة يقاس ببداية الدروس ونهايتها . ولكنه مع ذلك كان الزبون الذي لا يكاد يمر يوم دون ان يسعى الى دكان سيدي عزوز ويقف ببابه يسأل ، واحيانا يتوسل ويضرع . كان والده يحمله مسؤولية استعادة الساعة من سيدي عزوز يبعث به كل يوم دون ملل ،

ويصرفه سيدي عزوز عنه كلما وقف بباب دكانه دون ملل ، حتى أصبح كرقاص الساعة الكبيرة يدفع به جدارها الايمن الى جدارها الايسر فى غير رحمة ولا شفقة . وكلما نجح محمود فى استخلاص ساعة كانت زميلة لها تنهيا لتزور متحف سيدي عزوز .

* * *

كان ذلك فى رمضان فى صباح من اصباحه المتكاسلة وكان محمود فى القسم على غير عادته زائغ العينين تائه الفكر أصفر الوجه . لم الق بالا لهذا الذي بدا عليه من تغير . فقد كان يصر على أن يصوم رغم أن والده ووالدته يمنعانه من الصوم بحجة انه ما يزال صغيرا . كان يعمل على أن يؤكد رجولته بالصيام رغم ان الطقس كان يميل الى الحرارة والنهار كان يميل الى الطول ، ورغم ان بنيته لم تكن تساعده على ذلك فقد كان عنودا . لهذا لم يلفت نظري ما بدا عليه من اضطراب حتى انتهت حصة الصباح وخرجنا من المدرسة . وضع ذراعه على كتفي كعادته حينما يريد أن يفضي الي بشيء . وبدا يهمس فى اذني كأنه يخشى ان يسمعه أحد غيري .

— أتدري ما حدث مساء امس ؟

تصاعدت انفاسه كأنما كان يشق عليه ان يستعيد ذكريات لا يود ان يتذكرها . لم يثرني تساؤله الغريب . وكعادتي أقابل مثل هذه الاهتمامات، التي يعتبرها غيري مثيرة ، بنوع من البرود يحسبه كثيرون اهمالا ، واستمر :

— ... سيدي عزوز ، هذا الساعاتي الذي لا تكاد ساعة تزور متحفه الا استولى عليها كعنكبوت تحتضن ضحيتها بخيوطها الحريرية الناعمة ، والذي لا يؤمن بغير سيدي عزوز كأن الزمن لا يستقيم على غير يديه ...

قاطعته ساخرا ...

— بقية القصة معروفة : عمك ، خالك ، زوج اختك وسيدي عزوز.

هزته السخرية من أعماقه فافتر فمه عن ابتسامة غيرت ملامح همومه فاستانف :

ـــ لا تعجل ... كان والدي على موعد سفر صباح اليوم ، وهو يثق في ساعته الفضية ثقته في سيدي عزوز .

ـــ لعله يخشى أن يفوته القطار اذا لم تأخذ مكانها من جيبه .

ضاق محمود بمقاطعتي واستمر :

ـــ ... والعنكبوت يخيم على الساعة ، فلم استطع رغم ترددي على دكانه طيلة شهرين ان استعيدها . وقد اقسم لوالدي امس ان يحملها بنفسه الى منزلنا بعد الافطار . مرت الساعات بطيئة ووالدي ينتظر ، يعد حنائبه وينهي مشاكله ويعود فيسأل : الم يأت سيدي عزوز ؟ تناومت ولو ان بي شوقا الى أن أسهر معه حتى ساعة الوداع ...

ـــ ... وفي ساعة الوداع تتفتح ابواب السماء في ليلة القدر ..؟

استشاط غضبا من مقاطعتي فنظر الي عاتبا ، وقد انحلت ذراعه عن عنقي . واستانف كأني لم أقاطع :

ـــ ... آمحمود ... آمحمود .

كان لا بد لي ان أجيب فقد كنت أميز جيدا بين النداء الغاضب الذي لا ينفع فيه تهرب ، والنداء الذي يمكن ان أبتعد عن مرمى اصدائه فلا يطول أذني . ووقفت أمامه مشفقا كأنما أنتظر حكما قاسيا .

ـــ الى سيدي عزوز ... لم يأت ـ الله يهديه ـ بالساعة كما وعد ... لا تتأخر ... ليس بيني وبين مغادرة المنزل غير ساعات ... اسرع. ما تزال واقفـــا ... ؟

تسمرت قدماي .. طاشت احلامي . زاغت نظراتي . ولعلي لم أكن أعي الفقرات الاخيرة من أوامره . انتبهت مذعورا على صيحة مدويـة ، وكان لا يصيح الا اذا احتدت أعصابه . اتجهت بأذني وعيني جميعا الى مصدر الصيحة . قلت وأنا لا أعرف ما أقول :

ـــ ... ولكنه ... ولكن .. الدكان مقفـــل فنحن نقتـــرب من منتصف الليل ...

نظر الي كانما احس باني اداور . كتم غيظه وطامن من صوته وهـــو يؤكد الحكـــم :

ـــ ... في منزله ... الم تذهب الى منزله عشرات المرات ...؟

نظر الى وجهي ، الى عيني وكانه يقرا ما في عمقهما . اضاف :

ـــ في رمضان لا ينام احد ... ستجده في انتظارك ... اسرع الله يرضي عنـــك ...

لم يكن في وسعي ان اعترض . طاطات راسي

تلفتت نحو محمود فوجدته مطرطىء الراس كانه كان يمثل وهو يحكي قصته ، لعله كان يفكر ، يتنقل بوعيه الى ما كان يفكر فيه ساعـة ان صدر الحكم بان يطرق منزل سيدي عزوز في تلك الليلة التاريخية من ليالي رمضان.

منزله في درب ضيق مظلم من هذه الدروب التي تعتبر في فاس حيا كاملا من الاحياء المهمة ، تسكنها قبيلة باكملها ، تتلوى طرقها وحواريهـــا كالحرباء ، قد تعرف مدخلها ، ولكنك لا تستطيع ان تخرج منها الا بدليل.. عشرات الازقة الجانبية التي تدهشك بشكلها المعتم وجدرانها المتآكلـة وسقوفها المطبقة كانها كهوف اهل الكهف ، عشرات الدور ومرائب البغال والحمير والخرائب ، سقوف محمولة على اعمدة خشبية متهاوية . لا تامن وحشتها في عز الظهر ، ولا يدخلها ليلا الا اشجع شجاع . تامن الانســـان فيها ، ولكنك لا تامن صراخا هائلا منبعثا من مواء قطط تتصارع على نفايات الازبال ، وقد يفزعك قط انحرف به زقاق ضيق يسابق فارا ضخما انطلق في الظلام يبحث عن غذاء . الصمت والظلام وهدوء الموت يفسح المجال لاصوات غريبة تنبعث ، لا ادري من اين ... لا تسمعها اذناك فقط ، ولكنك بكل حواسك وجوارحك تتسمعها موشوشة ، صاخبة ، ثائرة ، نادبـــة ، ضاحكة . لا تملك ان تخرسها بالغناء او الحديث الى نفسك ، اصداؤهـــا تعلو فوق صوتك . تتجمع ذاتك كانما لتهرب من هذه الاصـــوات ، مـــن

الصمت ، من الصخب ، من الظلام ، من الليل ، من الوحدة ، من مـــواء القطط وسباق الفئران ، وتبقى ذاتك حيث هي فى عالم الدرب العجيب .

ـــ اتدري اى درب هذا الذي كان يسكنه سيدي عزوز ؟

انفجرت ضاحكا بعد ان أزاح عني هذا السؤال الكبت الذي غمرني به محمود وهو مطاطىء الراس يفكر .

ـــ لن يكون غير « زنقة حجامة » او « السبع لويات »

قال محمود وهو يستغرب ان اعرف الدرب الذي يقصده :

ـــ من ايـــن عرفـــت ؟

استانـــــف :

كان علي ان احل المشكلة التي لم يفكر فيها والدي . لعلها ليســـت مشكلة بالنسبة اليه . لقد عاش حياته يقتحم هذه الدروب نهارا او ليلا ، لا يخاف لانه ليس هناك ما يخيف .. وكان الحل ان أوقظ ابن عـــم لـــي ليصحبني . كنت اعرف العوض : اقتسم معه ما ينفحني به والدي ليلـــة سفره . اطار الاقتراح النوم من عينيه . كان اشجع مني وهو يقتحم الدرب. لم تتردد قدماه بمثل ما ترددت قدماي . كنت اقفز كلما فرت قطة من بين قدمي يلاحقها قط يمر بين قدميه كسهم غير طائش ، وكان هو يضحـــك بملء فيه وهو ينحني ليلتقط حجرا يقذف به الخصمين . تلفتت يمنة وانا احاذر ان ينقض علي انس او جان ، فالتقت عيناي بعينين تلمعان فى موجة من ظلام لم تتحركا . كانتا متجهتين نحوي كانهما تقدحان بشرر . حولت نظري عنهما وانا ابحث عن مصباح بعيد معلق بين السماء والارض كقنديل ينفث آخر ما بقي فى ذبالته . كان بعيدا لا يضيء ولكنه استطاع ان ينقـذ عيني من كتلة الظلام والعينين اللامعتين التائهتين فى الظلام . حاول ابن عمي ان يسرع وهو يشغل نفسه بكلام يعلو فيه صوته كما لو كان يتحدث الى جمهور . لم اكن اعي كلامه ، ولم يكن يشغلني صوتـــه عن الاصوات المتهافتة التي تنطلق من كل مكان فترجني من اعماقي . حاولت ان اتلخص منها فنطقت :

ـــ سيدي عزوز هذا متى سيموت ... ؟

لم يدر معنى لسؤالي فانطلق ضاحكا ، ورد ساخرا :

ـــ اتريدني ان اسال سيدنا عزرائيل ؟

ازداد ضحكه قوة وارتفع صوته ـ لعله ليطغى على الاصوات الهائمة في الظلام ـ واردف :

ـــ الموت لا يعرف الطريق الى هذه الدروب ...

استمر يضحك وهو يضيف :

ـــ ... لعله يخـــاف ان يدخـــل ..

قلت في نفسي وانا لا استطيع ان احرك لساني :

ـــ ولعله ان دخل لا يستطيع الخروج ...

كنت اعرف الطريق جيدا الى دار سيدي عزوز . وكان ابن عمـــي يقف عند كل منحني ، عند كل التواء ، عند كل زقاق ، ليتركني اتقدمه حتى ادله على الطريق . اتوقف حتى تسبق خطواته خطواتي . كنت ادله على الطريق باشارة من يدي ، ولو ان الظلام لم يكن يسعفه ان يتتبع الاشارة .

كان آخر التواء . وكنا بباب دار سيدي عزوز .

ابتلع محمود لسانه وسكت ، كان بي شوق الى تتمة حديثه فقد كنت اوثر ان ارميه بضحكة ساخرة وهو يتحدث لي عن مخابىء زنقة حجامـــة . اذكر جيدا هذه « الزنقة » التي يمكن ان تضاف الى عجائب الدنيا السبع ولكنه سكت ، طاطا راسه مرة اخرى لعله كان يفكر في الزقاق الصغيـــر الذي تثوى به دار سيدي عزوز . انه زقاق ليس طويلا ولا عميقا ، تتربعه مجموعة من بوابات المنازل بعضها فخم فاره ، بعضها متواضع متهافت آئل الى السقوط . كنوز اثرية وراء هذه البوابات الضخمة ، وراءها قصور لم تكن تحلم بان تثوى في قعر درب غارق في الظلام والوحم والقذارة تتسابق فيه القطط والفئران والكلاب الضالة . لا ينفذ الى الزقاق هواء ولا نور

الا ما تتصدق به البوابات الفارهة ان تخللتها نسمة من هواء او بصيص من نور . وكان هناك مصباح يضيء ، ملتصق بالسقف . سقف منحدر يكاد يطبق على الارض . المصباح يكشف عن خروم الجدران المتآكلة ، تكاد تشعر بانها آيلة الى سقوط . يكشف عن ستائر العنكبوت السوداء ، ربما صنعها لتخفي السقف المنتفخ كبطن حبلى توشك أن تضع جنينها . الستائر السوداء خيمت أيضا على جنبات المصباح لترسم ظلالا على الجدران المتآكلة والارض المتربة والبوبات الصارمة والوجوه المرعوبة والقطط المتلصصة . بقع من نور باهت تلصصت من وراء الستائر السوداء هي وحدها كانت تؤنس غربة الزقاق الغارق فى الظلام والوحشة والخوف .

لوحة فنية رائعة ، ابدعتها ريشة فنان ...

هكذا افكر الآن ، وانا اذكر هذا الزقاق الصغير من زقاقات « زنقة حجامة » .

تلفتت الى وجه محمود استزيد من بقية قصته . استعاد نفسه ولعله كان ضائعا فى ذكرى لم تترسب بعد فى أعماقه . استغاق فى حركة مفاجئة ، استمر كان شيئا ما لم يقطع حديثه :

— ... رفعت « الخرصة » لاضرب ضربة قوية عنيفة ... تذكرت توصية والدي : فى رمضان لا ينام الناس ... لعله ينتظرك ... ضربت ضربة هادئة وانتظرت ... اعدت الضربة اقوى قليلا وانتظرت .. الهدوء والصمت ودقات قلبي قوية عنيفة . كانت هي كل الصدى . نظر احدنا فى وجه الآخر كاننا فى مشورة ، ابعدني بيسراه عن بوابة المنزل وامسك بيمناه الخرصة فى عنف كما لو كانت له معها ترة . حاولت ان انبيه ، ولكني وجدتني مرتاحا لعنفه فقد يستجيب سيدي عزوز او احد من خدمه ليرفع عنا صوته كابوس الوحدة والصمت . تلاشت اصداء الضربات القوية العنيفة ، وعدنا الى موقعنا من الهدوء والصمت ودقات قلبي العنيفة . لم اكن استطيع العودة دون الساعة الملعونة ، ولو استطعت لاقتحمت مخدع سيدي عزوز وامسكت بتلابيبه او يعيد الي الساعة . كان العجز يهيمن علينا ، فلا نحن نستطيع العودة ولا نحن نستطيع اقتحام المنزل المغلق لنوقظ الرجل الغارق فى سبات عميق .

قلت ، وانا احاول ان اخرج بمحمود من هذه التفاصيل المملة :

ـــ كان امامكما حل واحد : ان تناما بباب المنزل حتى الصباح ، فلعلكما تظفران به وقد افاق ...

اتبعت كلماتي بضحكة قوية فنظر الي شزرا وكانه يقول :

ـــ لا تسخر ... لو وقفت موقفي ذاك ...

استانف حديثه وكانه كان حريصا على ان يتخلص من عبء يثقل كاهله:

ـــ ... ومع الصمت والهدوء وخشخشة قطة تبحث فى ركام نفايات الدور كانت عينا ابن عمي تجحظان وتتسمران فى نهاية الزقاق . لم يعد يتحرك .. زاد جموده من عنف المأساة . نظرت اليه فى رعب وقد كان كل أملي ان يطرد عني وحشة الوحدة والخوف . باشارة من يده وكلمة مرعوبة من لسانه :

ـــ انظـــــر ...

لم تتجه عيناي على بعدهما . كنت اخاف ان انظر الى ما وراء بقع النور الباهت .

ـــ مالك ... ؟ انها قطة تبحث عن غذاء . اصبحت تخشى القطط

بصوت خافت يكاد يختنق اجاب :

ـــ انظر هناك ... فى آخر الدرب .

واتجهت عيناي الى امام ، آخر الزقاق ، كتلة من ظلام ينفذ اليهـــا شعاع باهت من نور المصباح يخترق ستائر العنكبوت ليفسح الطريق أمام العيون المرعوبة . كانت هناك بقامتها المديدة وجسمها البـــض المكتنـــز يموج فى بحر لجي من بياضه اللامع ، بعينيها السوداويـــن البراقتيـــن المليئتين بالحنان والسلام والنداء ، بشعرها الطويل القوي الفاحم ينسدل على كتفين نابضتين ، بصدرها الناهد المندفع الى امام ، بوقفتها المتجلية فى عريها الكامل ... ببسمتها الحانية ، بعطائها المتلهف .

وقف شعر راسي وارتعدت فرائصي وانا استمع الى محمود .

كان صوته جافا وهو يروي قصته . كان صادقا وهو ينقل مشاعره . تغلبت على كل مخاوفي . عدت لمداعبته .

ـــ تسابقتما اليها ، أو جرت نحوكما ... ؟ طوقتكما بذراعيها الناعمتين في حنان ... ؟

ابتسم كما لو كان يأمل ... ثم عاد الى عينيه الرعب القاتل :

ـــ عدت ادراجي وانا اجري في لهفة . كان ابن عمي يلاحقني وانا اخرج من زقاق لأرتمي في زقاق ، تفر من بين ارجلنا القطط والفئران والكلاب وكانها تشعر باننا نطاردها . لا ادري الوقت الذي قطعناه في طريقنا الى خارج « زنقة حجامة » ولكنا ـ ونحن نتعثر في جرينا ـ كنا نشعر بان احدا ما يلاحقنا ... بأن اقدامنا لا تبرح مكانها . بأن الضوء الذي بهرنا في آخر الدرب يكاد يغشي عيوننا فلا نتبين مواطىء اقدامنا .

وفي باب زنقة حجامة كان الناس ما يزالون يسهرون مع ليالي رمضان .

• • •

ما يزال محمود ينتظرها ، كان يزور مسرح اللقيا القصيرة كلما هف به الشوق . وانتقل الى زنقة حجامة يسكن في نفس الزقاق الذي كان يسكنه سيدي عزوز ، لا ليبحث فيه عن الساعة الضائعة ، ولكنه ليبحث عنها ، تلك التي ضاعت منذ كان يقف تحت المصباح الباهت يرجو في رعب ان تفتح له بوابة دار سيدي عزوز .

الرباط — عبد الكريم غلاب